بين الادب والتاريخ

الأستاذ الدكتور/ عنمان سليمان موانى

بسم الله الرحمن الرحيم

سادتي،

لعل من المناسب أن نعيد إلى الأذهان ماذكره بعض الفلاسفة قديما، عن أهم ما يميز الإنسان عن سائر الكائنات التي حوله ، وخلاصة قولهم في ذلك : أن الانسان حيوان ناطق، أي متكلم، والكلام كما سنعرف مادة الأدب .

ويضيف بعض ذوي الفطنة إلى ذلك ، صفة أخرى يتصف بها الإنسان ، وهي المقدرة على تذكر أحداث الماضي .

ولما كانت هذه الصفة لاتتوافر في أي كائن حي، سوى الإنسان قالوا في وصفهم له، : إنه حيوان له تاريخ.

ومن ثم فالادب والتاريخ، يرتبطان بالانسان أوثق ارتباط.

وسنحاول في هذه المحاضرة الكشف عن طبيعة العلاقة بين هذين اللونين من الوان المعرفة .وذلك من حيث المفهوم، والموضوع، والمنحى.

وانطلاقامن هذا يستوقفنا سؤال تقليدي، عن مفهوم كلمة أدب، فما مفهوم هذه الكلمة؟؟

لكلمة أدب في تراثنا اللغوي دلالات كثيرة، منها ماهو خلقي، ومنها ماهو نفسي، ومنها ماهو ثقافي.

يقول صاحب لسان العرب (الأدب الذي يتأدب به الأديب من الناس، وسمي أدبا لأنه يأدب الناس الى المحامد وينهاهم عن القبايح.

وأصل الأدب الدعاء، ومنه قيل للصنيع يدعى إليه الناس مدعاة ومأدبة. والأدب، أدب النفس، والدرس، والأدب الظرف وحسن التناول.

وأدبه فتأدب، أي علمه، ويقال للبعير إذا ريض وذلل أديب مؤدب.والأدب مصدر من أدب القوم يأدبهم إذا دعاهم الى طعام) (١)

---

(١) ابن منظور - لسان العرب ج١ مادة "أدب" ط: دار المعارف بمصر.

والواقع أن صاحب لسان العرب، أغرقنا في طوفان من المعاني المتباينة، ولم يحاول أن يبين لنا، أيّ هذه المعاني أسبق من الاخرى، شأن كثير من معاجمنا اللغوية القديمة(١)، التي أغفلت عامل الزمن في ترتيب معاني الألفاظ، ولم تقف بنا على مراحل تطورها.

ومن المعروف عند الباحثين اللغويين حديثا، أن الألفاظ تتطور حسب تطور مصادر المعرفة الانسانية وتنوعها، من معرفة مادية حسية الى معرفة، نفسية، ومنها الى معرفة معنوية ثم يصل بها التطور إلى أن تصبح مصطلحا على فرع من فروع العلم والمعرفة.

وقد نهج المستشرق الايطالي كارلونالينو هذا النهج تقريبا في كشفه عن التطور الدلالي لهذه الكلمة في ثقافتنا العربية، وقد انتهى من ذلك إلى نتيجة مؤداها:أن أقدم معاني هذه اللفظة طبقا لما ورد في النصوص الشعرية، والكتابات النثرية التي ترجع إلى العصر الجاهلي والقرن الأول الإسلامي هي السنة أو العادة المتوارثة خلفا عن سلف(٢)

ثم أطلقت على الحكم والمعاني الخلقية المتوارثة عن الأجداد، ،التي كانت تتخذ أساسا للتربية والتعليم.

وتطور مفهومها بعد ذلك، إلى معنى المعرفة بالشيء ثم اتسع هذا المفهوم فشمل المعارف الدنيوية(٣).

ونتيجة لاحتكاك العرب بعد الإسلام، بحضارات الأمم المجاورة لهم، وإفادتهم من تراث هذه الأمم، والتراث العقلي بنوع خاص، شرعوا يحددون

---

(١) راجع مثلا معاني هذه الكلمة في القاموس المحيط . والصحاح للجوهري.

(٢) ولهذا يرجع نالينو، أنها مشتقة من الأدب أي الصادة، ثم حدث لها قلب مكاني في الجمع، فجمعت على آداب قياسا على جمع بئر على آبار ، ورأى على آراء.. راجع له تاريخ آداب اللغة العربية ص ١٨.

(٣) نالينو : تاريخ آداب اللغة العربية ص ١٤ -٢٢.

مفاهيم بعض العلوم والمعارف، وفنون القول، ومن بينها الأدب، الذى عرفوه بقولهم: (هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف)(١).

ويبدو من هذا التعريف أن الأدب عند العرب ذو عان، خاص وعام.

فالخاص، هو ما أثر من شعر وفنون نثرية مختلف، أما العام، فهو الالمام من كل فن من فنون العلم أو المعرفة بشيء.

وعلى هذا يفرقون بين العالم والأديب، فيقولون(إن الأديب يأخذ من كل شيء أحسنه، والعالم من يقصد لفن من العلم فيحتمله).(٢)فالعالم غير الأديب، لأن العالم يختص بفرع من فروع العلم أو المعرفة فيتقنه، أما الأديب، فلا يعنى بذلك، وإنما يختار من كل فرع من فروع العلم أو المعرفة أحسنه.

والأديب بهذا المفهوم يشبه الكاتب الموسوعى فى عصرنا الحديث أو مانسميه بالمثقف.

والمتأمل فى تراثنا الأدبى يلحظ أن كثيرا من أسلافنا الكتاب الذين فهموا الأدب بمعناه العام، غلبت على كتابا تهم الطابع الموسوعى مثل، الجاحظ(٣)، وابن قتيبة(٤)، وابن عبد ربه (٥)، والنويرى(٦).

وعلى أية حال، فهذا عن مفهوم الأدب عند القدماء، أما عن مفهومه عند المحدثين، والغربيين بنوع خاص، فلا يختلف كثيرا عن مفهومه عند القدماء.

---

(١) ابن خلدون المقدمة ص ٥٢١ - ٥٢٢.

(٢) ياقوت معجم الأدباء ط ص ١٧ ط : مرجليوث.

(٣) راجع له مثلا، كتاب الحيوان ، والبيان والتبيين ، ورسائله الأدبية المتنوعة الموضوعات، بين اجتماعية ، وسياسية، ودينية ...

(٤) راجع له، كتاب عيون الأخبار ، وأدب الكاتب.

(٥) راجع له كتاب العقد الفريد.

(٦) راجع له نهاية الأرب فى فنون الأدب.

فالمحدثون يرون أن الأدب نوعان كذلك، عام وخاص. فالمعنى العام كما يقول نالينو (عبارة عن جميع ما صنف في لغة ما سواء في العلوم، أم من الشعر والنثر البليغ، فالآداب حينئذ تشمل على جملة ماقيد في الكتب والدفاتر من انتاج أفكار علماء الأمة وأدبائها).(١)

ويتفق معه في هذا المستشرق الألماني كارل بروكلمان حيث يقول (يمكن اطلاق لفظة أدب بأوسع معانيه على كل ماصاغه الإنسان في قالب لغوي، ليوصله الى الذاكرة) (٢)

ويشير إلى أن بعض العلماء الباحثين يعدون النقوش أدبا بهذا المفهوم، كذلك الوثائق التاريخية والرسائل.

أما عن المعنى الخاص، فهو فن قولي يشتمل على كثير من الفنون الشعرية والنثرية، كالروايات والخطب، والأمثال والحكم(٣) وكل أثر لغوي صيغ صياغة جيدة.

ويدخل بعضهم في ذلك، كتب التاريخ والرحلات التي تتسم بجمال الصياغة، وحسن العرض، وشدة التأثير في النفس.(٤)

ويرى بعض ذوي الفطنة من النقاد الغربيين، أن أي تعبير لغوي لايكتسب الصفة لأدبية، إلا إذا استحوذ على مشاعر السامعين أو المتلقين له، وجلبهم نحوه.(٥)

---

(١) نالينو، تاريخ آداب اللغة العربية ص ٤١.

(٢) كارل بروكلمان تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ٣ (الترجمة العربية)

(٣) المرجع السابق والصفحة.

(٤) نالينو - تاريخ آداب اللغة العربية ص ٤١.

(٥) لاسل أبركرمبي قواعد النقد الأدبي ص ١٨ -١٩ ترجمة: محمد عوض محمد.

وذلك لأن أهم مايميز لغة الأدب، كونها لغة انفعالية صادرة عن عاطفة الأديب، ومثيرة عواطف المتلقين له، وإذا لم تحدث هذه الاثارة لاتعد أدبا ولو كانت صحيحة السبك، متقنة الـ ـاغة، وإنما تعد نثرا علميا، مجردا من أى أثر للانفعال أو العاطفة.(١)

وطبقا لهذا،فإن الأدب، فن قولى صادر عن الانفعال والعاطفة ومثير للانفعال والعاطفة.

أو تعبير لغوى عن تجربة شعورية فى صورة موحية.(٢)

ومهما يكن من أمر، فهذا النوع من الأدب، يطلق عليه كثير من النقاد المعاصرين، اسم الأدب الابداعى، أو الانشائى(٣)، ويرون أن أهم عناصره، العاطفة، والمعنى، والاسلوب، والخيال.(٤)ويطلقون على النوع الثانى، اسم الأدب الوصفى.وينضوى تحت لواء هذا النوع من الأدب، فرعان من أفرع الدراسة الأدبية الحديثة، وهما: تاريخ الأدب، والنقد الأدبى.ولما أصبح الأدب فى عصرنا الحديث علما، يدرس فى الجامعات والمعاهد العلمية المختلفة اتجه كثير من أساتذة البحث الأدبى، إلى اطلاق كلمة تاريخ الأدب على الأدب العام، أو الوصفى، وقصروا كلمة أدب، على الأدب الإبداعى.

الذى يعد عندهم فنا من الفنون الجميلة، يتخذ من التعبير اللغوى أداة لنقل التجربة التى أحسها الأديب إلى القارىء.(٥)أما تاريخ الأدب، فهو أقرب إلى العلم، منه الى الفن.

---

(1) OGiden and Richards, The meaning of meaning p.285.

(٢) سيد قطب - النقد الأدبى ص ٧ .

(٣) Encyclopeadia Britanica, literature.

(٤)أحمد الشايب - الأسلوب ص ١٧ ط : النهضة المصرية .

(٥) قواعد النقد الأدبى ص ٤٦.

ولذا يعد عند بعض العلماء الباحثين، تاريخا للحياة العقلية(٥)لأمة من الأمم، أو شعب من الشعوب.

ومهما يكن أمر، فهذا عن مفهوم الأدب قديما وحديثا.

أما عن مفهوم التاريخ قديما، وعند أسلافنا من العرب بنوع خاص.فيلاحظ، أن الباحثين أختلفوا حول أصل هذه الكلمة، وهم بصدد تحديد مفهومها، فذكر بعضهم أنها ذات أصل عربي(١) . وذهب بعضهم إلى القول بأنها ليست عربية الأصل، بل معربة عن الفارسية من ماه روز،(٢) أو منقولة عن أصل سامي، من يارخ، أى القمر، ويرح أى الشهر.(٣)

وبالرغم من اختلاف الباحثين حول أصل هذه الكلمة، والتى يصعب ترجيح رأى منها على الآخر ، فإن كثيرا من الباحثين ، يتفقون حول ما تعنيه هذه الكلمة فى العربية.

فكلمة تاريخ تعني تعريف الوقت(٤)، أو تحديد الشهر، ثم تطور هذا المعني فشمل رواية الأخبار أو الأحداث، أو التاريخ المدون بحسب السنين (٥).

وقد ألمحنا ونحن بصدد الحديث عن مفهوم الأدب العام عند العرب إلى أن بعض الروايات والأخبار التي تتعلق بأيام العرب وأنسابهم، ومآثرهم القديمة تعد لونا من ألوان هذا الأدب .

---

(١) بروكلمان - تاريخ الأدب العربى ج١ ص ٧.

(٢) راجع مادتى أرخ ورخ فى لسان العرب ، والصحاح للجوهرى والمعجم الوسيط.

(٣) ومعنى ماه القمر . وروز الشهر ، راجع الصحاح للجوهرى .

(٤) راجع مادة تاريخ بدائرة المعارف الاسلامية.

(٥) راجع مادتى أرخ ورخ فى الصحاح للجوهرى ، ولسان العرب .

(٦) دائرة المعارف الاسلامية مادة تاريخ.

ويمكن أن نضيف الى ذلك بعض الكتابات التاريخية الأولى ، كالسيرة النبوية التي تحفل بكثير من خصائص الصياغة الأدبية، إذ تتسم بجمال التعبير ورقيه، وحسن العرض، علاوة على ما تثيره في نفس القارىء من رغبة شديدة في تتبع سير الأحداث والأخبار وتستحوذ على مشاعره وأحاسيسه من أجل ذلك(١).

ومن المعروف عند كثير من علماء التاريخ، أن السيرة النبوية وأخبار العرب قبل الإسلام، تمثلان المادة الأولية لكتب التاريخ الإسلامي(٢).

وبناء على هذا يمكننا القول، بأن التاريخ الإسلامي نشأ في البداية نشأة أدبية.

ومكث على هذا الحال فترة طويلة من الزمن، تصل إلى عدة قرون (٣).

ولكن المتأمل في الكتابات التاريخية يلحظ أنها أخذت بمرور الزمن، تتحرر من الصبغة الأدبية، وتتجه نحو الكتابة العلمية، التي تقوم على عرض الحقائق العلمية عرضا واضحا، وكذا الأحداث التاريخية، والتزام التعبير العلمي المجرد من أي أثر انفعالي أوعاطفي.

وكما تطورت الكتابة التاريخية وأصبحت نثرا علميا، تطور مفهوم التاريخ، ولم يعد رواية لأحداث الماضي وأخباره وحسب، بل تعليلا، وتفسيرا، وتحقيقا للروايات والنصوص التاريخية، وتوثيقا لها.ويبدو هذا بوضوح من فحوى قول ابن خلدون(إن التاريخ لي ظاهره، لايزيد على إخبار عن الأيام

---

(١) راجع خبر الرسول - في السيرة - منذ مولده حتى وفاته ، وأخبار الغزوات.

(٢) راجع دوزنتال - علم التاريخ عند المسلمين - مقدمة الترجمة العربية، عبد العزيز الدوري نشأة علم التاريخ عند العرب ص ... وحادة تاريخ بداثرة المعارف الاسلامية.

(٣) راجع مثلا كتابات كثير من المؤرخين المسلمين حتى القرن السابع الهجري. مثل ابن قتيبة، واليعقوبي، والدينوري، والطبري، وابن الأثير.

والدول، والسوابق من القرون الأول، وفى باطنه نظر وتحقيق وتعليل، للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق)(١).

وبهذا يكشف ابن خلدون عن مفهومين للتاريخ، مفهوم سطحى، ومؤداه، أن التاريخ رواية لأحداث الماضى وأخباره، ومفهوم عميق، وهو نقد وتفسير وتعليل الأحداث والأخبار التاريخية.

وقد كشف عن هذا الفهم العميق، لماهية التاريخ، من خلال نظريته فى نقد المعرفة التاريخية، التى سبق بها، كثيرا من فلاسفة التاريخ ونقاده فى العصر الحديث(٢).

ولهذه النظرية جانبان، جانب سلبى، وجانب ايجابى، ويتمثل الجانب السلبى فى هجومه على المؤرخين السابقين عليه، وشكه فى صحة كثير من الأخبار التاريخية، التى نقلوها دون نقد أو تمحيص وبيان ماوقعوا فيه من أخطاء(٣)، ثم ذكر العوامل والأسباب التى أدت بهم إلى ذلك.

مثل التشيعات للآراء، والثقة فى الناقلين، وتقرب الناس لذوى المراتب العليا بالثناء والمدح، والذهول عن المقاصد، وتوهم الصدق، والجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع.

ويرى أن مطابقة الوقائع على الواقع، أو العمران البشرى، كما يسميه تعد أصلح مقياس لنقد الروايات التاريخية، التى يقال عنها إنها ممكنة الحدوث، أو مستحيله الحدوث.

---

(١) المقدمة ص ٧.

(٢) ساطع الحصرى ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ص ٦٤.

(٣) راجع بحثنا عن موقف ابن خلدون من نقد التاريخ والأدب والشعر ضمن كتابنا منهج النقد التاريخى الإسلامى والمنهج الأوربى ص ٢٢٦ - ٢٧٦ ، الناشر : دار النهضة الجامعية ط: الثالثة.

(فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالامكان أو الاستحالة، أن ننظر في الاجتماع البشري، الذي هو العمران ونعرف مايلحقه من الأحوال لذاته، ويقتضي طبعه، وما لايكون عارضا لا يعتد به، ومالايمكن أن يعرض له)(١)وينتهي من هذا الى وضع مفهوم جديد للتاريخ، وهذا يمثل الجانب الايجابي من نظريته.

وخلاصة هذا المفهوم، أن التاريخ اخبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو العمران، ومايعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يعدث من ذلك العمران بطبيعة الحال(٢)

ومن ثم، يتسع مفهوم التاريخ، ويتجاوز النطاق الضيق الذي حصره فيه بعض القدماء، كرواية الأخبار، وتسجيل الأحداث الهامة، والتأريخ للمشاهير والأعيان، دون سائر الناس(٣) إلى أن يصبح تاريخا حضاريا واجتماعيا، يتناول ما يتعلق بالمجتمع وأفراده، من عادات وتقاليد ونظم، ومشكلات اجتماعية، وأحداث وقضايا، ومايطرأ على المجتمع من تغير أو تطور .وهذا هو المفهوم السائد للتاريخ في عصرنا الحديث.

يقول تونبي(إن التاريخ هو العلم الذي يبحث في الحياة العقلية التي تحياها الوحدات البشرية، أي المجتمعات، وفي العلاقات القائمة بينها(٤)

---

(١) المقدمة ص ٣٣.

(٢) كمنحى بعض المؤرخين القدماء مثل الطبري، وابن الأثير، وأصحاب كتب التراجم والسير.

(٣) راجع مثلا ، كتاب تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي لحسن ابراهيم.

(٤) تجديد الصحاح في اللغة والعلوم ج ١ ص ١٨.

وطبقا لهذا المفهوم، فقد يتناول التاريخ الحياة الأدبية فى عصر من العصور، ويؤرخ لها، ويتداخل بذلك مع تاريخ الأدب، الذى يعد كما أشرنا، تاريخا للحياة العقلية.

وتبدو العلاقة بينهما أشبه بعلاقة الجزء بالكل، والفرع بالأصل. ومن ناحية المضمون، فكثيرا مايصور الأدب مظاهر الحياة الاجتماعية والحضارية، ويعبر عن مشكلات المجتمع وافراده، فى شكل أعمال أدبية إبداعية، شعرية كانت أم نثرية.

كما نرى عند كثير من الشعراء فى العصر الحديث، وبعض كتاب القصة والمسرحية(١).

وكما نرى عند بعض أسلافنا من الأدباء فى عصر ازدهار الحضارة العربية كالجاحظ،(٢) وابن العميد،(٣) والهمذانى، والحريرى(٤)...

فقد عبروا فى كتاباتهم عن قضايا مجتمعهم وعصرهم، أصدق تعبير كما صوروا كثيرا من عادات المجتمع وتقاليده، ومشكلاته الاجتماعية التى كان يعانى منها كثير من الناس آنذاك، معاناة شديدة حتى لقد أصبحت بعض هذه الكتابات صفحات نقدية، لكثير من نقائص المجتمع وعيوبه الاجتماعية(٥). وقد حدث هذا فى الوقت الذى كان فيه المؤرخون، لايلقون بالا إلى مثل هذه الأمور، ويعنون

---

(١) مثل الحبيب بحطرط، وتوفيق الحكيم، وتيمور، ويوسف إدريس.

(٢) راجع رسائله لمحقق السندوبى، وهارون، وكذا، وكذا كتابه البخلاء.

(٣) راجع رسائله.

(٤) راجع مقامات كل منهما.

(٥) ويبدو هذا بوضوح فى بعض رسائل الجاحظ، وابن العميد، والهمذانى، ذوات المضامين الاجتماعية ومقامات الهمذانى والحريرى.

فى تاريخهم، بالأحداث الكبرى، وأخبار الزعماء، والقواد والمشاهير من الناس(١)..دون النظر إلى مشكلات المجتمع، وأحوال عامة الناس، وعاداتهم وتقاليدهم، ونظمهم المعيشية، وأفراحهم وأتراحهم.

وبناء على هذا، يمكننا القول بأن الأدب، يعد فى هذه الحالة مصدرا من مصادر التاريخ الحضارى والاجتماعى بنوع خاص ويلتقى بذلك مع التاريخ بالمفهوم الحديث.

وعلى أية حال، فقد وضح لنا، وضوحا تاما، مفهوم كل من الأدب والتاريخ قديما وحديثا، وما يكشف تطور هذا المفهوم عما بينهما من تداخل.

ولايقتصر التداخل على هذه الناحية، ولكنه يتجاوز ذلك إلى الموضوع فقد يتناول الأديب بعض الموضوعات التى يعرض لها المؤرخ، مثل بعض الأحداث السياسية والآثار التاريخية.

وهنا يثار سؤال، وهو، هل يتفق منحى المؤرخ والأديب فى هذا التناول؟؟

ولكى يتسنى لنا الاجابة عن هذا السؤال، نمثل ببعض الأحداث التاريخية التى تناولها بعض المؤرخين وبعض الشعراء، مثل:ثورة الزنج التى قامت فى القرن الثالث الهجرى ضد الخلافة العباسية، وكان زعيمها رجلافارسيا، استمال عددا كبيرا من الزنوج إلى جانبه، وادعى أنه يريد أن يحررهم من الرق والعبودية

ووعدهم كما يقول بعض المؤرخين (أن يقودهم ويملكهم الأموال وحلف لهم آلايغدر بهم، ولا يخذلهم، ولايدع شيئا من الإحسان إلا أتى به إليهم..، وأمر

---

(١) مثل تاريخ الطبرى، وابن الأثير وكتب التراجم والسير.

كل من عنده من العبيد فضربوا مواليهم كل سيد خمسمائة سوط ..)(١)

واتسمت ثورته بالتدمير والتخريب، والسلب والنهب، وسفك دماء الأبرياء من الناس.

ولما تناول المؤرخون هذه الثورة، عنوا بسرد أحداثها، والكشف عن أهدافها، والآثار المدمرة التي أحدثتها ببعض البلدان العربية والنهاية التي انتهت إليها(٢)، وذلك في لغة علمية واضحة على نحو ما رأينا في النص السابق.

أما الشعراء فقد اتجهوا نحو هذا الحدث وجهة أخرى، نابعة من رؤية الأديب الفنان للواقع، التي تتخذ غالبا من الوجدان مرآة لها، ينعكس عليها واقع الأديب الخارجي، أو الداخلي، فيعبر عما أحسه وشعر به، ويصور وقعه على مشاعره، تصويرا صادقا.

والشاعر في مثل هذه المواقف، لا يعبر عن ذاته وحسب، وإنما يعبر كذلك عن ذات الجماعة.

ومن الشعراء الذين تأثروا بهذا الحدث التاريخي، وعبروا عن ذلك في شعرهم ابن الرومي، الذي أفزعه، ما أحدثه هؤلاء المتمردون من تدمير وتخريب في مدينة البصرة.

يتمثل في ازهاق آلاف الأرواح البريئة، وهتك الأعراض، وسبي الحرائر من النساء، وسرقة الأموال، وتشتيت شمل الأسر :

يقول معبراً عن ذلك، في نغمة حزينة باكية:

ذا دعن مقلتي لذيذ المنام ... شغلها عنه بالدموع السجام

أي نوم من بعد ما حل بالبصـ ... ـرة ما حل من هنات +عظام

---

(١) ابن الاثير - الكامل ج ٥ ص ٣٤٢.

(٢) راجع المرجع السابق ج ٥ ص ٣٣٦ - ٤٣٧ . وكذا المسعودي مروج الذهب ج ٢ ص ١٤٥.

+ كذا في اختيار كامل كيلاني، أما في ديوانه ط : دارالكتب "تلكم الهنات الـ-

أي نوم من بعد ما انتهك الزنـ ... نج جهارا محارم الإسلام
أقدم الخائنين اللعين عليها ... وعلى الله أيما إقدام
وتسمى بغير حق إماما ... لا هدى الله سعيه من إمام.
لهف نفسي عليك أيتها البصـ ... رة لهفا كمثل لهب الضرام.
بينما أهلها بأحسن حال ... إذ رماهم عبيدهم باصطلام.
كم أغصوا من شارب بشراب ... كما أغصوا من طاعم بطعام.
كما رضيع هناك قد فطموه ... بشبا السيف قبل حين الفطام.
كم فتاة بخاتم الله بكر ... فضحوها جهرا بغير اكتتام.
ألفٌ ألف في ساعة قتلوهم ... ثم ساقوا السباء كالأغنام.
من رأهن في المساق سبايا ... دامیات الوجوه والأقدام.
من رأهن يتخذن إماء ... بعد ملك الاماء والخدام.
ماتذكرت ماأتى الزنج إلا ... أضرم القلب أيما إضرام.
ما تذكرت ما أتى الزنج إلا ... أوجعتني مرارة الإرغام.
ربّ بيع هناك قد رأس خصوه ... طال ماقد غلا على السوام.
ربّ بيت هناك قد خلوه ... كان من قبل ذاك صعب المرام.
ربّ ذي نعمة هناك ومال ... تركوه محالف الإعدام.
رب قوم باتوا باجمع شمل ... تركوا شملهم بغير نظام.(١)

وواضح من هذا النص أن ابن الرومي، لم يفصل في الحديث عن أحداث

---

(١) راجع القصيدة كاملة في ديوان ابن الرومي، ط ١: دار الكتب المصرية ج ٦ ص ٢٣٧٧.
وراجع كذلك اخبار كامل كيلاني ص ٤١٩ - ٤٢٣.

هذه الثورة وأهدافها، وينحو بذلك منحى المؤرخين، ولكنه اكتفى بتصوير واقعة من وقائعها، تكشف عن مدى عنفها، وقوة أصحابها وغلظتهم فى معاملة الناس، والأطفال الأبرياء والكشف عن ألوان التدمير والتخريب، التى أحدثها هؤلاء المتمردون، بهذه المدينة المطمئنة، معبرا عن ذلك فى لغة مرحية، تصور احساسه، بفداحة المأساة المفجعة، وتؤثر فى مشاعر القارىء وأحاسيسه تأثيرا قويا، فيتجاوب مع الشاعر، تجاوبا وجدانيا صادقا.

إذ يحس باحساسه، ويفزع لفزعه، ويُعدى ببدائه.

وهذا من أخص خصائص التعبير الأدبى كما أشرنا.

ومن قبيل هذه الأحداث، التى تناولها المؤرخون والشعراء وتباينت مناحيهم فى ذلك، حادثة وقعت فى إحدى قرى مصر أيام الاحتلال البريطانى، وهى حادثة دنشواى.

التى يذكر المؤرخون و شهود العيان، أنها حدثت صيف ١٩٠٦م. ويرون أحداثها على النحو الآتى مثلا (فى يوم الأربعاء ١٣ يونيو ١٩٠٦م قام خمسة من الضباط الإنجليز من معسكرهم، وقصدوا بلدة دنشواى من أعمال مركز تلامنرفية لصيد الحمام، وهناك أصيب بعض الأهلين فاصطدموا بالانجليز، فأصيب بعض الضباط بإصابات أفضت إلى الموت، فثارت ثائرة اللورد كرومر - عميد الدولة البريطانية إذ ذاك - وعقدت المحاكمة المخصوصة ... وقضت المحكمة بأعدام أربعة ، وحبس رجل ثمانية.. ، ونفذ الاعدام والجلد فى نفس البلدة على مرأى ومسمع من أهله..) (١).

أما الشعراء الذين عرضوا لهذه الحادثة فى أشعارهم ، فقد عبروا عن

---

(١) راجع هامش ١ . ص ٢٠ من ديوان حافظ ابراهيم حـ ١ . ط١ : الهيئة المصرية للكتاب.

إحساسهم ، وإحساس الشعب المصرى كله ، بفداحة هذه المأساة.

ومن خير النماذج الشعرية، التى تصور ذلك ، قصيدة أحمد شوقى التى قالها فى الذكرى السنوية الأولى ، لهذه الحادثة ، والتى استهلها بقوله:

يادنشواى على رباك سلام ... ذهبت بأنس ربوعك الأيام .
شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا ... هوجات للشمل الشتيت نظام.
مرت عليهم فى اللحود أهلة ... ومضى عليهم فى القيود العام.
كيف الأرامل فيك بعد رجالها ؟ ... ورأى حال أصبح الأيتام.
عشرون بيتا أقفرت وانتابها ... بعد البشاشة وحشة وظلام.
بالبيت شعرى فى البروج حمائم ... أم فى البروج منية وحمام.
"نيرون" لو ادركت عهد كرومر ... لعرفت كيف تنفذ الأحكام.
نوحى حمائم دنشواى وروعى ... شعبا بوادى النيل ليس ينام.
إن نامت الأحياء حالت بينه ... سحرا وبين فراشه الأحلام.
متوجع يتمثل اليوم الذى ... ضجت لشدة هوله الأقدام.
السوط يعمل والمشانق أربع ... متوحدات والجنود قيام.
والستشار إلى الفظائع ناظر ... تدمى جلود حوله وعظام.
فى كل ناحية وفى كل محلة ... جزعا من الملأ الأسيف زحام.
وعلى وجوه الشاكلين كآبة ... وعلى وجوه الشاكلات رغام.

والواقع أن أحمد شوقى(١)، لم يتعامل مع هذا الحدث بعقله، شأن أى مؤرخ، بل بوجدانه، كأى شاعر صادق.

ولذا فقد استهل قصيدته بمخاطبة دنشواى، كما يخاطب الشعراء القدماء

---

(١) الشوقيات حـ ١ ص ٢٤٤.

الديار وربوعها، محاولا استنطاقها، كي ترد عليه، وتجيبه عما يسأل عنه ويحزنه، من أحوال أهلها، الذين تفرق شملهم، وغمرهم الأسى والحزن، وذلك بعد انقضاء حول على هذه المأساة، ويخص بالذكر الأرامل، والأيتام، ويلمح إلى أن وراء هذه المأساة، طاغية أشد طغيانا من نيرون روما وينادي الحمام، كي يشاركه حزنه، بنوحه على الموتى، مثيرا بذلك مشاعر الشعب المصري، الذي لم ينس هذه المأساة، فصورتها لاتزال ماثلة أمام عين كل مصري.

صورة جلد من جلد من هؤلاء الأبرياء، وصورة شنق من شنق منهم، والانفعالات النفسية، التي بدت مظاهرها مرتسمة على وجوه أهلهم، أثناء تنفيذ القصاص الجائر.

ولقد عبر شوقي عن هذا كله في لغة شعرية صادقة، مصورة أصدق تصوير، احساسه بالأسى والحزن، التي استحوذ على مشاعره وتمثل في كثير من صور هذه القصيدة.

كصورة الحزن الذي خيم على ربى هذه القرية، وعلى بيوت القتلى والمسجونين، وعلى وجوه الذين فقدوا أبناءهم، وعلى وجوه الثاكلات.

وصورة أبراج الحمام، التي تحولت الى ابراج موت ودمار...، وصورة الشعب الذي يئن ويتوجع، وكأنه أصيب بألم شديد..

.وعلى أية حال، فقد استطاع شوقي أن يجعل من هذا الحدث التاريخي تجربة شعرية صادقة على النحو الذي رأينا.

وقد غلب عليه هذا المنحى فى تناوله للموضوعات التاريخية باستثناء بعض القصائد التى بدا فيها ناظما لاشاعرا.(١)

وهذا الحكم ينطبق كذلك على منحى بعض الشعراء المعاصرين له فى تناولهم لبعض الموضوعات التاريخية.(٢)

ومن الموضوعات المتداخلة بين الأدب والتاريخ كذلك، وصف الآثار التاريخية، ومن أشهر ماوصف من هذه الآثار، فى عصر ازدهار الحضارة العربية، إيوان كسرى.

وقد عنى المؤرخون والاخباريون فى وصفهم له، بتحديد موقعه تحديدا دقيقا، وصورته من الخارج ومن الداخل، وتقدير مساحته وارتفاعه، والمادة المستعملة فى بنائه،والاشارة الى العصر الذى بنى فيه...(٣)أما عن وصف الشعراء له، فخير ما يمثله سينية البحترى، التى أنشدها حينما زار هذا القصر، فى ظروف نفسية سيئة.

فقد كان يعانى من حالة إحباط نفسى، بسبب بعض التقلبات السياسية، التى أصابه من نارها بعض الشرر.

فقد أدى نجاح مؤامرة اغتيال الخليفة العباسى المتوكل، بتدبير من الجند الأتراك وولى العهد، إلى اقصاء أنصار المتوكل عن قصر الخلافة وحرمانهم من كثير مما كانوا ينعمون به من جوائز وهبات مالية.

وكان البحترى واحدا من هؤلاء الذين عانوا كثيرا بسبب هذا الحرمان المادى، ولأسباب معنوية أخرى.

---

(١) مثل همزيته التى مطلعها " همت الفلك واعتراها الماء وحداها بن ثقل الرجاء راجع الشوقيات جـ١ . ص١٧ - ٣٣.

(٢) راجع كتابنا فى نظرية الأدب ج ٢ ص ٣١٩ - ٣٢١.

(٣) راجع مثلا معجم البلدان ، لياقوت الحموى مادة "الابيض"

منها مثلا أنه لم يعد شاعر الدولة والمتحدث الرسمي باسمها، كما كان في عهد المتوكل، واختفى بعيدا عن الأضواء، وجفاه الكثيرون.

وأحس بشيء من الغربة، فقرر الرحيل ويمم وجه شطر مدينة المدائن، حيث إيوان كسرى.

الذي وجد نفسه مشدودا نحوه، وكأنه قطعة منه.

ويبدو أنه أحس أن هذا الإيوان يعاني مما يعانيه،

فأخذ يصفه ما زجابين ما ساته، ومأساة الايوان مزجا نفسيا رائعا، حتى يخيل لنا، أنه قد حل في المادة الموصوفة، وحلت فيه، بحيث يصعب التفريق بين الموصوف والواصف.

ومما يصور ذلك قوله عن هذا الإيوان:

يتظنى من الكآبة اذ يـــ ... ـدو لعيني مصبـــح أو ممسي.

مزعجا بالفـراق عن الـنس إلـــف غر أو مرهقا بتطليق عرس

عكـست حظه الليالي وبات المشتـرى فيه وهو كوكـــب نحـس

فهو يبدي تجلدا وعليه كلكل ... من كلا كل الدهر مرسي.

لم يعبه أن بز من بسط الديـ ... ـباج واستل من ستور الدمقس.

مشمخر تعلوله شرفـات ... رفعت في رءوس رضوى وقدس.

لابسات من البياض لمعاتـه ... صـر منها الاغـلاتل بـرس.

ليس يدري أصنع إنس لجن ... سكنوه أم صنع جن لإنـس.

غير أني أراه يشهد أن لم ... يك بانيه في الملوك بنكس.(١)

ولا ندري هنا من الذي يبدو كئيبا مرهقا كأنه فارق أنيسه أو انفصل عن زوجه !!

ومن الذي انعكس حظه، وانعكس على المشتري كوكب السعد فانقلب

---

(١) راجع ديوان البحتري حـ ٢ ص ١٥٩ - ص ١٦٠ ؛ تحقيق الصيرفي ط : دار المعارف بمصر.

حين زاره كوكب نحس ؟!

ومن الذى يتجلد ويتلقى صدمات الدهر، بصبر وثبات؟!

ومن الذى يشمخ بأنفه إلى أعلا ؟!

أهو الشاعر؟! أم الإيوان ؟! أم هما معا ؟!

إن صدق تجربة الشاعر، جعله يبدو فى وصف هذا الإيوان على النحو الذى رأينا من الاستغراق في المادة الموصوفة.. وإن شدة اعجاب الشاعر بماضى الإيوان، وتقديره للفرس أصحابه وحضارتهم، جعله يستعيد صور هذا الماضى فى أكثر من لوحة من لوحات وصفه.

من ذلك مثلا قوله:

نكأنى أرى المراتب والقو ... م إذا ما بلغت آخر حبسى.

وكأن الوفود ضاحين حسرى ... من وقوف خلف الزحام وخنس.

وكأن القيان وسط القاصيـ ... ـر يوجعن بين حو ولعس.

وكأن اللقاء أو ل من أمـ ... س ووشك الفراق أول أمس.

وكأن الذى يريد اقتباعا ... طامع فى لحوقهم صبح خمس.

عمرت للسرور دهرا فصارت ... للتعزى رباعهم والتأسى.

فماضى هذا الإيوان يشهد على عظمته، وتلوح صور منه أمام الشاعر كصورة وقوف رعايا كسرى حسب مراتبهم الاجتماعية أمام باب الإيوان وصورة الوفود الكثيرة التى كانت تتوافد على الإيوان، وقد بدا عليها الاعياء، وصورة مغنيات كسرى وهن يغنين.

ويخيل للشاعر أن الذى يراه أمامه، واقع حدث منذ يوم أو يومين وأن أصحابه لايزالون على قيد الحياة، ومن يريد اللحاق بهم، فلن يستغرق منه ذلك سوى أيام قليلة.

ومهما يكن من أمر، فقد استطاع البحترى من خلال وصفه لهذا الأثر التاريخى الجامد، أن يحركه ويبث فيه نسمة الحياة، ويشخصه فيجعله إنسانا يحس ويشعر، ويتفاعل مع الشاعر، ويتفاعل الشاعر معه، تفاعلا قويا، ويبدوان شيئا واحدا.

ويختلف البحترى فى هذا المنحى الوصفى عن كثير من الشعراء السابقين عليه والمعاصرين له، الذين كانوا يقصرون وصفهم على التقاط الصور الخارجية للمادة الموصوفة(١)، دون الكشف عن انعكاساتها على وجدانهم.

وهذا على العكس مما نراه فى هذا الوصف الوجدانى، الذى يشبه فى كثير من خصائصه، منحى الشعر الرومانسى فى الوصف.(٢)

كما يختلف كذلك عن منحى المؤرخين والاخبار بين فى الوصف، الذى يقوم على تسجيل ونقل صورة الأثر التاريخى نقلا حرفيا، كما يبدو فى الواقع، دون زيادة أو نقصان، وذلك فى لغة علمية واضحة.

وعلى أية حال، فقد كانت سينية البحترى، بما تتضمنه من وصف وجدانى لهذا الأثر التاريخى، مبعث إعجاب بعض شعرائنا المعاصرين، كأحمد شوقى، الذى مر بالتجربة نفسها، حين نفى إلى أسبانيا وشاهد آثار العرب هناك، وعبر عن ذلك، فى قصيدة طويلة بلغت أكثر من مائة بيت، وهى سينية كذلك، وقد حاول معارضة سينية البحترى بها.

ولا يهمنا هنا المفاضلة بينه وبين البحترى فى هذا المجال، أو البحث عمن تفوق على الآخر، وان كان للسابق فضل السبق على اللاحق، ولكن الذى يهمنا هنا، هو الكشف عن منحى شوقى فى وصف الأثر التاريخى.ومن أهم الآثار

(١) راجع موضوع الوصف فى كتابى : التيارات الأجنبية فى الشعر العربى ص ٣٢٩ - ٣٥١ ط ٤ الثانية.

(٢) راجع الرومانتيكية ، لغنيمى هلال ص ١٣٠ - ١٤٠. والشعر المصرى بعد شوقى لمندور ج ١ ص ٤٩ - ١٢٢، ج ٢ ص ١٢٨ - ١٤٧ وانظر لمندور كذلك فن الشعر ص٩٨ - ١٠١.

التاريخية، التى أثارت إعجابه وصورها فى هذه القصيدة، المسجد الجامع فى قرطبة، الذى يعد من أعظم مساجد الأندلس.

وقد عنى المؤرخون فى وصفهم له بالحديث عن تاريخ بنائه، وتصميمه المعمارى ووصف أعمدته ورواقه، والمادة المستعملة فى بنائه، والجدران التى تحيط به(١).

أما وصف شوقى له، فيتمثل فى هذه الأبيات:

ورقيق من البيوت عتيق ... جاوز الألف غير مذموم حرس.
أثر من "محمد" وتراث ... صار للروح ذى الولاء الأمس
بلغ النجم ذروة وتناهى ... بين سهلان فى الأساس وقدس
مرمر تسبح النواظر فيه ... ويطول المدى عليها فترسى.
وسوار كأنها فى استواء ... ألفات الوزير فى عرض طرس.
فترة الدهر قد كست سطريها ... ما اكتسى الهدف من فتور ونعس.
ويحها كم تزينت لعليم ... واحد الدهر واستعدت لخمس.
وكأن الرفيف فى مسرح العيـ ... ـن ملاء مد ثراث الدمقس.
وكأن الآيات فى جانبيه ... يتنزلن فى معارج قدس .
منبر تحت "منذر" من جلال ... لم يزل يكتسيه أو تحت قس.
ومكان الكتاب يغريك ريا ... ورده غائبا، فتدنو للمس.
صنعة الداخل المبارك فى الغر ... ب وآل له ميامين شمس.(٢)

ويكشف هذا النص عن منحى أحمد شوقى، فى وصف هذا الأثر العظيم، الذى يبدو من خلاله، ملتزما منحى الشاعر الأديب الذى يعنى بتصوير وقع مايراه، ويعجب به على وجدانه وأحاسيسه معبرا عن ذلك فى لغة شعرية موحية، حافلة بكثير من الصور الفنية.ويحرك الشاعرهنا،دوافع نفسية وشعورية

(١) تراث الاسلام ج ٢ ص ١٣٠ - ١٣١.
(٢) الشوقيات جـ ٢ ص ٤٩ - ٥٠ .

قوية، تجاه هذا الأثر التاريخي، تبدو لي إعجابه الشديد بدقة الصنعة وجمالها المعماري الذي يتمثل في بقاء هذا الأثر غضا ناضرا، بالرغم من تجاوزه الألف عام.

كما يتمثل في أكسيته المرمرية، وفي تناسق أعمدته وأستوانها، وزخارف سقفه، التي تبدو ملاءات حريرية مطرزة، وما يجللها من آيات قرآنية، كأنها وحي منزل من السماء.

ومن هنا يتضح لنا، أن وراء إعجاب الشاعر بالجمال المادي لهذا الأثر، شعور داخلي بقيمته الروحية، ولذا تتجلى عاطفته الدينية في هذا الوصف. فيرى خلف هذا الجمال الحسي، جمالا روحيا، لآيات القرآن الكريم التي تزين السقف، تبدو معنى روحيا أي وحيا منزلا من السماء.

والجمال الحسي للمنبر، يغلفه جمال روحي، يستدل على المنبر وما حول والأثر الروحي للمصحف لايزال باقيا، ويستدل عليه بهذه الرائحة الذكية التي تفوح من قاعة المصحف، مع أنه غير موجود بها.

ومن ثم، فإن وصف شرفي لهذا الأثر التاريخي، يعد وصفا وجدانيا كذلك. وبهذا يلتقي مع البحتري في وصفه لإيوان كسرى، وإن اختلفت دوافع كل منهما في وصف الأثر التاريخي.

وعلى أية حال، فما ذكرناه من أمثلة نصية يوضح لنا، أن الأدب والتاريخ، قد يلتقيان في الموضوع، ولكنهما يختلفان في الصياغة لتباين منحى الأديب عن منحى المؤرخ في التناول الفني.

وذلك لأن المؤرخ- كما وضح لنا - حين يصف حادثة أو أثرا تاريخيا ينقل ماراه وشاهده نقلا حرفيا، وإذا لم يكن شاهد عيان للحادثة، فإنه ينقل روايات شهود العيان كما وردت على ألسنتهم دون زيادة أو نقصان ، وذلك في لغة

علمية واضحة، مجردة من أى أثر انفعالى أو عاطفى.

أما الأديب والشاعر بنوع خاص، فإنه لايصف الحادثة، أو الاثر التاريخى، وإنما يصف إحساسه بذلك، ووقعه على مشاعره.

ومن هنا، فإن مايصفه الأديب المبدع، لايبدو على صورته الحقيقة، بل فى صورة معدلة عن الأصل، وقد تكون أجمل مما هى عليه فى الواقع، وقد لايكون لها صلة بالواقع، وإنما تخيل الأديب المبدع، أو الشاعر، وافعالها.

ولذا يرى أرسطو (أن مهمة الشاعر الحقيقة ليست فى رواية الأمور كما وقعت فعلا، بل رواية ما يمكن أن يقع) (١) ويتخذ من هذا دليلا على التفريق بين المؤرخ والأديب المبدع فيقول(إن المؤرخ والشاعر، لايختلفان لكون أحدهما يروى الأحداث شعرا، والآخر يرويها نثرا، وإنما يتميزان من حيث كون أحدهما، يروى الأحداث التى وقعت فعلا بينما الآخر يروى الأحداث التى يمكن أن تقع)(٢)

وبغض النظر عن الغاية التى يهدف إليها أرسطو من وراء هذه الموازنة بين الشاعر والمؤرخ، وهى الاعلاء من شأن الشاعر، فإن ما ينبغى أن نستخلصه من عبارته هو أن التاريخ مرتبط بالواقع، ومقيد بحدود من الزمان والمكان، لايستطيع الانفصام عنها.

أما الأدب والشعر بالذات، الذى يعد لب الأدب، بل الأدب الخالص، فقد يتجاوز حدود الزمان والمكان، وينطلق إلى آفاق أرحب، وأبعد من هذه بكثير.

ومن هنا، يبدو البون بين الأدب والتاريخ شاسعا!!

ويصبح التفاوتهما، مرهونا، باقتراب الأدب من الواقع، أو وعودة التاريخ، إلى فطرته الأولى، التى فطر عليها، حين نشأ نشأة أدبية.

---

(١) فن الشعر - ترجمة عبد الرحمن بدوى ص ٢٦.

(٢) المرجع السابق والصفحة